

المهذب بن الزبير

هو شاعر من شعراء مصر في العصر الفاطمي ، نشأ في أسوان من بيت علم وأدب وفضل ، ورحل إلى القاهرة ، فاتصل بالوزير المشهور الصالح طلائع ابن رزيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) واختص به . وكان هذا الوزير أديباً شاعراً ، وكان يتخذ له مجلساً يحضره الأدباء والشعراء ، وكان يسمعهم بعض ما يقرض من الشعر ، وكان الناس يهرعون إلى نقل شعره ، وقد اتهمه معاصروه بأنه لم يكن يحسن الشعر وأن أكثر شعره صنعه له المهذب بن الزبير ، وقالوا إن المهذب حصل من الصالح بسبب ذلك على مال جم ، حتى إنه كان يلبس الثياب المذهبة .

وبالغ ياقوت في علم المهذب بالأنساب ، ويقول إنه ألف فيها كتاباً كبيراً يقع في نحو عشرين مجلداً ، كل مجلد عشرون كراساً ، وقد رأى بعضه ياقوت فوجده مع تحفته هذا العلم غاية في معناه لا مزيد عليه ، وعلل لاحسان المهذب فيه بأنه مضى إلى بلاد اليمن في رسالة من بعض ملوك مصر ، واجتهد هناك في تحصيل كتب النسب وجمع منها ما لم تجتمع عند أحد حتى صح له تأليف هذا الكتاب .

ولا ترجع أهمية المهذب في عصره إلى علمه بالأنساب ، وإنما ترجع إلى شعره ؛ فقد كان خير شعراء مصر في عهد ابن رزيك . وإذا عرفنا أن هذا العهد امتاز بنشاط واسع في الشعر وأن شعراء كثيرين كانوا موجودين فيه وعلى رأسهم الرشيد أخو المهذب وابن الصياد وابن قادوس ، أمكننا أن نعرف إلى أي حد حقق المهذب لنفسه مقدرة في عمل الشعر وصنعه . وقد ترجم له العباد الأصهباني في خريدته ترجمة ضافية استلها بقوله : « المهذب أبو محمد الحسن ابن علي بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من أخيه الرشيد ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ، توفي قبل أخيه بسنة ، لم يكن في زمانه

أشعر منه أحد وله شعر كثير ، ومحل في الفضل أثير . « ويروى له العماد بعد هذه المقدمة قطعة كبيرة من شعره ، نستطيع أن نطلع منها على جميع خصائصه . ولعل أول ما يلاحظ على هذا الشاعر الممتاز أنه لم يكن شاعر نفسه ، بل كان شاعر الصالح بن رزيك ؛ فهو من الشعراء الذين يتغنون بمناقب الأمراء والوزراء على نحو ما نعرف عند شعراء المشرق الذين اتخذوا المديح مرفقاً لهم ومكتسباً . ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ؛ فهي تقوى حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغنونها ، وهي تضعف حين تعبر عن زلفى وما يتصل بالزلفى من رياء ونفاق .

للمديح عندنا إذن قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع ، وقصيدة ليس لها موضوع . ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وكذلك مديحه في المعتصم وفتحه لعمورية ، ومنه أيضاً مدائح المتنبى في سيف الدولة وحروبه مع الروم . ومن الضرب الثانى مدائح سهيل وغيره من الشعراء للوزراء في المناسبات المختلفة من أعياد وتقلد للوزارة ونحو ذلك .

وفرق بعيد بين الضريين ؛ ففي الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر . أما في الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم ولا ما يشبه تاريخهم ، إنما نقرأ ويقرءون ملقاً ونفاقاً .

وإذا رجعنا نتساءل من أى الضريين كانت مدائح المهذب وأشعاره في الصالح بن رزيك ، وجدنا الخريدة تخبينا بأنها كانت من الضرب الأول ؛ فقد ملا ابن رزيك أيامه ببطولة مجيدة في حرب الصليبيين وردهم عن حصون الشام . وإن في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور — من بعض الوجوه — مدى هذه البطولة . ومن يرجع إلى عقد الجمان للعيني يجد كثيراً من الألوان التي ترسم صورتها رسماً دقيقاً ؛ فقد كانت الجيوش المصرية ترسل فوجاً من بعد فوج إلى ثغور الشام ، وكانت أعلامها ما تنى تطل على العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدورهم ، فهو يفرع صوراً وعكا ، وهو يقطع على سفن الصليبيين طريقها إلى الموانئ الشامية . وكان

الصالح بن رزيك يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، وكم سجل لمصر من فتوح وانتصارات في عسقلان وغير عسقلان ، وكم أرسل من جيوش يتبعها جيوش ، وفي ذلك يقول أو يقول المهذب بن الزبير :

غزوناهم في العام ستين غزوة بأسد سرت نحو البلاد بعقبان
فكم بين حصنى عسقلان وغزة مساحب نسوان ومصرع فرسان
وفي بيت لحم لحم قتل كثيره تجررها فوق الثرى أسد خفان

لم تكن حياة الصالح بن رزيك حياة فارغة ، بل كانت حياة مليئة بالحوادث والخطوب ، حوادث هذه الغارات وخطوب هذه الانتصارات . ومثل هذا الوزير لا تكون قصيدة المديح فيه قربي ورلني ورياء ونفاقاً ، وإنما تكون ثناء على صفحات مشرقة في تاريخه وتاريخ قومه . ولعل بما يذكر لشعراء العربية بالاطراء أنهم لم يتركوا شخصاً من هذا النوع العظيم دون أن يسجلوا أعماله وفتوحه في شعرهم . ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم لماذا يحل المؤرخون من مصريين وغير مصريين الصالح بن رزيك وعهده ؛ فقد كانت وزارته للخلفاء الفاطميين عوناً للإسلام والمسلمين ضد الصليبيين ، وكانت القاهرة في أيامه معرضاً لمواكب الأسرى من الفرنج ، وكان المصريون يخرجون للفرجة على هذه المواكب كأنها « كرنفالات » عظيمة . وجد الوزير الممتاز الذي يتوج هام قومه بالفتح والنصر ، فكان لايد أن يوجد الشاعر الممتاز الذي يتغنى باسم هذا الوزير وبما قلم من أظفار أعدائه ، وكان المهذب بن الزبير هو هذا الشاعر الذي تغنى بالوزير المصرى وبجيوشه وأسطوله ، وبما أنجزوا جميعاً الأعداء وشدوا الوثاق منهم . ومن أطرف ما روى له العماد في تصوير ذلك قصيدة نونية يبدوها على هذا النحو :

أعلمت حين تجاور الحيان لما أبوا ما في الجفان قريتهم
بصوارم سُلت من الأجفان وثلت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان ألبأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن ذمهم معاً بحران مدح الورى بالبأس إذ خضبوا النظبا
في يوم حربهم من الأقران

ولأنت تخضب كل بحر زاخر من تحارب بالنجيع القساي
حتى ترى دمهم وخضرة مائه كشقائق نثرت على الريحان
وكان بحر الروم مخلّق وجهه وطفّت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما لم يأت في حين من الأحيان

وواضح في نعمة هذا الشعر أن الشاعر فرح مبتهج بما أفاء الله على الصالح من نصر في العريش ؛ فقد دق أعناق الأعداء هناك ، ونكصوا ، أو قل نكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة فتلقاها الأسطول يقتل فيها ويسبي ؛ ولا ريب أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر بأنه خضاب ، أو هو شقائق نثرت على الريحان ، أو هو خلوق بل هو منابت مرجان ، لا ريب أن هذا لتصوير كله وفق فيه . وقد استطرد من ذلك يصف سفن الأسطول :

شبهن بالغربان في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عدد القتال وقد غدت فيها القنا عوضاً عن الأشطان
فأتتك موقرة بسبي بينه أسراهم مغلولة الأذقان

أليس لابن رزك الحق في أن يعجب بهذا الشاعر الذي يستطيع أن يصور مجده الحربي على هذا النحو البديع ؟ فهو يصف حروبه في البر وحروب أسطوله في البحر ، وكيف كان يأتي بالأسرى وقد غُلّت أعناقهم وبلغت الأغلال أذقانهم فلا يستطيعون أن يعطفوا رؤوسهم فضلاً عن أن يطأطئوها . ونلست مع المهذب فإذا هو يصف قتل الصالح لأمر من أمراء الفرنج ، يقول :

قتل البرنس ومن عساه أعانه لما عسا في البغي والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه مرّ الجنى يبدو على المران
وتعجبوا من زرقة في طرفه فكان فوق الرمح نصلاً ثاني
فليهنه أن فاز منك بسيد أوفى برتبته على كيوان

وبين أن المهذب يشبه عين البرنس على الرمح بنصل ، فكان النصل ركبً نصلاً آخر . وهذه صورة دقيقة . وقد تصادف أثناء هذه الحرب أو قل هذه الحروب أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكت كثيراً

من حصون الصليبيين ، فذكر ذلك ابن الزبير ملتتمساً له تعليلاً طريفاً :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهلها من الخفقان
وأرى بأن حصونهم سجدت لما أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود إذا غدا لعلاك يسجد شامخ البنيان
قلدت أعناق البرية كلها منناً تحمّل ثقلها الثقلان

وهنا نلاحظ شيئاً من المبالغة عند المهذب إذ يطلب إلى الناس أن يسجدوا للصالح ، ولكن لعله يريد المجاز ؛ فسجود الحصون نفسها سجود مجازي . ونحن لا نجد في شعر المهذب مبالغة أو قل تطرفاً في المبالغة . ولعل من مظاهر ذلك أن الصالح كان غالباً في تشيعه ، ومع ذلك لا نجد في شعر المهذب ما يشير إلى هذا التشيع . وأكبر الظن أنه لم يكن مثل سيده غالباً في تشيعه . وربما كان مما يدل على ذلك أيضاً ما يروى عنه وعن أخيه الرشيد من أنهما جميعاً انحازا إلى صف أسد الدين شيركوه حين جاء إلى مصر مع ابن أخيه صلاح الدين ضد شاور الوزير الفاطمي المعروف .

على كل حال ليس في شعر المهذب ما يدل على تشيع ولا غلو في التشيع ، ومن هنا لم تظهر المبالغة في مدحيه لشخص الصالح على طريقة ما يعرف عن التشيعية في أئمتهم . وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا صوت المهذب الآن ؛ فهو صوت قوى فيه طرب ، هو طرب المصري إذ يرى بلاده تنتصر نصراً بعد نصر . واستمع إلى هذه القطعة من قصيدة أخرى له في الصالح :

تخال سيوفه لما انتضاهاها جداول والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن يرحن مع الظلام ويفتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت سناً يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الاصبح عدواً أثارت للعجاج به دجوناً
كأن الشمس حين تثير نقعاً تحاذر من سطاه أن تينسا
تخال البحر مد به خليج إذا ما مد بالقضب اليمينسا
وما تنطق يوم الروع حتى يندق بها الكواهل والمتونا

وهذه قطعة - كما يرى القارىء - وافية بالحياة والحركة التي تتم عن

كل ما في قلب الشاعر من بهجة أثناء مدحه لهذا الوزير الشجاع ، أو قل هذا الوزير البطل الذي أتاح لمصر في عهده حياة كريمة .

وليس كل ما رواه العباد للمهذب ينساق في مديح ابن رزيك وتمجيد حروبه وانتصاراته ؛ ففيه شعر كثير خاص بالمهذب ويعواطفه التي غشاها ، وخاصة عاطفة الحب ، فله قطع رائعة تعبر عنها أبجل تعبير وأفصحه . واقرأ هذه الأبيات :

هم نصَّب عيني أنجدوا أو غاروا	ومنى فؤادى أنصفوا أو جاروا
وهم سكان السر من قلبي وإن	بعدت نوى بهم وشط مزار
فارقهم وكأنهم في ناظري	مما تمثلهم لى الأفكار
تركوا المنازل والديار فما لم	إلا القلوب منازل وديار
واستوطنوا البيد القفار فأصبحت	منهم ديار الأنس وهي قفار
فلئن غدت مصر فلاة بعدهم	فلهم بأجواز الفلا أسفار
أو جاوروا نجدا فلى من بعدهم	جاران : فيض الدمع والتذكار
أمنازل الأحباب غيرك البلى	فلنا اعتبار فيك واستعبار
سقى لدهر كان منك تشابهت	أوقاته فجميعه أسحار
قصرت لى الأعوام فيه فمذ ناوا	طالت بى الأيام وهي قصار
يا دهر لا يغرك ضعف تجلدى	إنى على غير الهوى صبار

وهذه أبيات تعبر عن عاطفة الحب في أنبل صورها ؛ فالمهذب يعلن لأحبائه أنه لن ينساهم أنجدوا أو غاروا وأنصفوا أو جاروا . ولقد أنجدوا ولكن أطيافهم ماثلة في ناظريه ، ولقد تركوا المنازل والديار ولكنهم حلوا في قلبه وشغاف فؤاده . وإنه ليذكرهم وحولم جيرانهم كما يذكر نفسه ولا جار له إلا الدمع والتذكار . وإنه ليقف أمام منازلهم فترسم في نفسه الأوقات التي قضها معهم ، وتبدو في مخيلته جميعاً كأنها أسحار بكل ما في الأسحار من حسن وجمال . أما الأعوام التي مرت به في قريهم فقد كانت قصيرة ، أو هي تبدو الآن قصيرة ، حتى لكان العام يوم من الأيام التي يقضيها الآن في بعدهم . واستمع إلى هذه الأبيات التي رواها العباد أيضاً :

ليت شعرى كيف أنتم بعدنا أترى عندهم ما عندنا

بنتمُ والشوق عنا لم ين
لم ين قط علينا بعدكم
ولقد كنا نعزى النفس لو
لم تبالوا إذ رحلتم غدوة
سهرت أجفاننا بعدكم
فاخذعوا العين بطيف مثلاً
وظعنتم والآسى ما ظعنا
مثلاً هان عليكم بعدنا
كنتم قبل الثنائى مثلاً
أى شئ صنع الدهر بنا
فكانا ما عرفنا الوسنا
يخدع القلب أحاديثُ المنى

وهذه أبيات سهلة عذبة تعبر عن كل ما يجرى فى النفس من أفكار وعواطف فى سهولة ويسر . والسهولة وما يتصل بها من خفة هى طابع المصريين فى كل عصورهم . وكأن الشعر المصرى وليد بيئته ، فهو يجرى فى ترفق ولين كما يجرى النيل . وربما كان ابن الزبير بحكم أنه من شعراء المديح أكثر شعراء عصره تقليداً للنماذج المشرقة ، ومع ذلك فشعره حتى فى مدائحه خفيف سهل . وقد كان يستخدم التضمين ، ومع ذلك فهو لا يؤذى الشعر عنده كما يؤذيه عند غيره . وخير مثال لذلك هذه الأبيات :

أقصرُ فديتك عن لومى وعن عدلى
من كل طرف مريض الجفن ينشدنى
« يا رب رام بنجد من بنى ثعل »
« فر بما صحت الأجسام بالعلل »
أولا فخذلى أماناً من ظبا القل

فقد ضمن البيت الثانى شطراً من شعر لأمى القيس بعد تحوير خفيف فيه ، وكذلك ضمن البيت الثالث شطراً من شعر للمتنبى ، ومع ذلك فلا نحس ثقلاً فى الأبيات . لكن من غير شك حينما يعدل المهذب عن مثل هذا التضمين وما يطوى فيه من تكلف يقترب من نفوسنا ويدنو من قلوبنا بما يطرنا من شعر خفيف على نحو ما نجد فى قوله :

لا تبعشوا لى فى النسيم تحية
إنى أغار من النسيم عليكم

وهذا بيت يعبر عن رقة ورهافة حس بالغة . ولعل فى هذا كله ما يصور شاعرية المهذب من بعض الوجوه ، وأنه كان شاعراً ممتازاً فرض نفسه على شعراء عصره .